المتنبي وكافور

للآنسة نعمت فؤاد

المتنبي شعور ملتهب دفاق ، ونفس طامحة لا تهنأ بالجمام . وكان هو في شعره يصدر عن هذا الشعور ويترجم عن هذه النفس : آلامها وآمالها . شجاه أن يثب ابن خالويه عليه في حضرة سيف الدولة وليه وصفيه والذي أرسل فيه غرر مدائحه وكرائم أشعاره . يثب عليه ابن خالويه في حضرته ويضرب وجهه بمفتاح كان بيده فيشجه ، ويرى سيف الدولة ما حدث فلا يدافع عن أبي الطيب ! إنها لكبيرة ...

ليتهد إلى مصر إن بها كافوراً ، وقد سار إليها قبله أبو نواس في إمارة الخصيب فأعطاه حتى رضي .

وفد المتنبي على مصر وحده وتخلف عنها هواه حيث بقي في حلب لا يريم . إن أمير بني حمدان لم يمسسه بسوء ولكنه كبر عليه أن يمس بالسوء وهو حاضر فيسكت فيكون سكوته إقرار .

وكان الأستاذ أبو المسك كافور يحب العلماء والشعراء ويقربهم إليه كما جرت بذكره السير . ولعل نفسه الطموح كانت تهفو إلى شاعر يقصر عليه هواه ، ويغني علاه ، ويخلد مجده . ومن كالمتنبي صدق شاعرية وبعد صيت ؟ أتراه نفس على سيف الدولة شاعره ؟ أم أراد أن يقال عنه « عظيم القدر مقصود » ؟ كما حكى المتنبي .

إذن لم يكن بدعا من كافور أن يكرم وفادة المتنبي . فما إن نزل أخلى له داراً وخلع عليه وحمل إليه آلافاً من الدراهم ... يتألف قلبه ويعطفه عليه فهتف المتنبي به كالطير يلذ له التغريد وقد توفر له الماء والحب والشجر .

نحن نعرف المتنبي في مدائحه لسيف الدولة شاعراً مغلقاً جهير الذكر ولكن قد يكون الصوت واحداً وتختلف درجاته . إن للمتنبي هنا شاعر آخر . إنه يمدح وكأن به من مدحه غضاضة أتحسب أنه منشرح النفس وهو يستهل أولى مدائحه في كافور بهذا المطلع :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا

إنه عند علماء البديع بمطلعه هذا غير موفق ... وكذلك عندي ...

اصحب المتنبي في هذه القصيدة تعرف مهمته وتبين مقصده إنه لم يقصد كافوراً مادحاً بقدر ما قصده مسترفداً بل لعلك ترى أنه يهدف إلى مرمى أكبر من العطاء . أنصت إليه :

وغير كثير أن يزورك راجل ... فيرجع ملكا للعراقين واليا
فقد شهب الجيش الذي جاء غازيا ... لسائلك الفرد الذي جاء عافيا

ألم أقل لك أنه شاعر طموح ؟

وهذه النغمة لا تقف عند هذه القصيدة بل تطرد في كل قصائده التي نسميها « الكافوريات » وإليك الشاهد :

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم ... إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي شهب الدولات راحته ... ولا يمن على آثار موهوب
وهبت على مقدار كفي زمانتا ... ونفسي على مقدار كفيك تطلب
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسوني وشغلك يسلب

***

فارم بي ما أردت مني فإني ... أسد القلب آدمي الرواء
ونؤادي من الملوك وإن كا ... ن لساني يرى من الشعراء

أصح عندك ما أقول ؟

إن المتنبي هنا في مصر يمدح لينال ... ينال مالا وينال جاها . إنه يرى نفسه من الملوك وإن رآه الدنيا شاعرا .

ونلاحظ في كافوريات المتنبي أنه حينما يمدح كافوراً فإنما هو مدح كالذم .

بنى كافور دارا بإزاء الجامع الأعلى على البركة وطلب من أبي الطيب أن يذكرها فقال يهنئه بها :

مستقل لك الديار ولو كا ... ن نجوما آجر هذا البناء
إنما يفخر الكريم أبو المس ... ك بما يبتنى من العلياء

أتظن أنه يستقل له الديار حقيقة ؟ إني أحسبه يتهانف عليه في سره حين طلب منه أن يذكر داراً وقد عوده سيف الدولة أن يسجل أفضالا . وإلا فما معنى قوله في البيت الثاني :

إنما يفخر الكريم أبو المس ... ك بما يبتنى من العلياء

ألست ترى معى أنه يعرض له أن الفخر إنما يكون عما يكسب حمدا أو يخلد مجداً ؟

الفخر بالعلياء لا بالبناء . هذا هو رده على طالب كافور .

وقال يذكر قيام شبيب العقيلى على الأستاذ كافور وقتله بدمشق سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة :

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمران
ولله سر فى علاك وإنما كلام العدى ضرب من الهذيان

ألست تلمس النكته فى الشطر الثانى من البيت الأول ما دمت تعرف أن كافوراً كان عبداً بشع الخلقه ؟

أما البيت الثانى فإنه يفضح شعوره إزاء كافور . إنه ينعى على الأقدار حكمتها فى أن تعلك هذا وتتركه هو مثلا ! فلا يجد مخرجاً من حيرته سوى أن يردد القولة الشعبية « له فى كده حكم » أو بأسلوبه هو :

« ولله سر فى علاك »

ونلحظ عند المتنبى لونا ثالثاً وهو أنه لا يفتأ يذكر كافوراً بسواد لونه وهو يمدحه !

ومن قول سام لو رآك انسله فدى ابن أخى نسلى ونفسى ومالية

يريد أن كافوراً من نسل حام ، يريد أنه عبد

وفى قصيدته التى يستقل له فيها الديار يقول :

تفضح الشمس كلما ذرت الشمـ ـس بشمس منيرة سوداء

إن الشمس لو كانت سوداء لما سميت شمسا ولكنه يريد أن يذكر لون كافور والسلام ليطامن من كبريائه وإن تظاهر بمدحه أليس فى ذكر اللون حط من نسبه ؟

بل إن المتنبى صرح بذلك فى قصيدته التى مطلعها :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب
وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

فى هذه القصيدة صرح بأن كافوراً لا نسب له ولكن عزاءه أن المكرمات تناهى إليه ! يسمى ويذبح !

ويغنيك عما ينسب الناس أنه إليك تناهى المكرمات وتنسب

ولون آخر لا يخفى فى كافوريته ذلك هو حنينه التشوف إلى سيف الدولة وإذا علمت أن سيف الدولة وكافوراً كانا متنافسين أحسست وقع مدح المتنبى بما حمله من ذكر حنينه على نفس كافور :

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب

قد تقول أنه يقصد بالغيث ريق النهام ولكن صدقنى أنه يريد سيف الدولة . إن لفظ « هجرت » لا تقال إلا عن شىء يكون بينك وبينه صلة عزيزة ... أليس لفظ « الهجر » يقابل لفظ « الوصال » فى منطق العاطفة ؟

وقاد إليه كافور فرسا فقال يمدحه !

فراق من فارقت غير مذمم وأم ومن يممت خير ميمم

إن المتنبى فارق محمود الايتطاول الذم إليه . ألم أقص عليك أنه لم يهجره عن قلى ؟ جزى الله ابن خالويه .

رمى واتقى رمى ومن دون ما اتقى

هوى كاسر كفى وقوسى وأسهمى

وأحلم عن خلى وأعلم أنه متى أجزه حلماً على الجهل يندم

ها هى ذى قصة فى بيتيه . هو يعترف أن سيف الدولة لم يتعمده بإساءة فكيف يذمه وهو لو أراد لنال هواه كل سلاح فى يده . ليجرب الحلم إذن علّه يندم على ما فرط منه . هو يحلم عنه ويحلم بمدحه . إن البيت الثانى هو بعينه ما نسميه فى علم النفس « أحلام اليقظة » .

أرأيت أن المتنبى لم يخلص فى مدحه لكافور بل رنق صفوه بشوائب ذكرتها لك . أو تعده مادحاً ذلك الذى يذكر العيب فى ثنايا المدح وكان أولى به أن يخفيه فى هذا المقام ؟

ولكن العين لا تغض عن العيب إلا وهى راضية والمتنبى لم يكن راضياً عن كافور قط كما قال بنفسه بعد أن تحلل منه وأصبح فى وسعه أن يهجوه . لقد نظر إلى شقوق فى رجليه فقال هاجياً :

أريك الرضى لو أخفت النفس خافيـاً

وما أنـا عن نفسى ولا عنك راضياً

تظن ابتساماتى رجاء وغبطة وما أنا إلا ضاحك من رجائيا

وإذ أتينا إلى ذكر هجره لكافور فاعلم أنه أوسع كافوراً تعييراً بالسواد وصمة الأصل مما ليس عليه مزيد فلنقف اليوم عند هذا الحد على أن تكون لنا رجعة أخرى إلى أبى الطيب إن شاء الله .

نعمت فؤاد

كلية الآداب . جامعة فؤاد الأول